

المبحث الثاني

• قليل من التفاؤل •

في هذا المبحث (أربع صفحات) يلقي الدكتور هوفمان نظرة سريعة على الواقع الإسلامي المعاصر ، وعلاقة الغرب به .

وهو يشير أولاً إلى أن تقدماً ملموساً ، وتطوراً حسناً حدث في الواقع الإسلامي المعاصر ، راثياً أن وصف ما كان عليه المسلمون إجمالاً قبل حدوث هذا التطور ، ضروري لإدراك قيمة التطور الذي حدث .

لم يتوسع المؤلف في وصف الواقع الإسلامي قبل التطور الجديد فحصر إشارته في أرض الحجاز (مكة والمدينة) ، وما كان يلاحظ فيهما من سلبيات ، واعتمد على ملاحظات أبداها الحجاج الغربيون ، مثل بروكارت السويسري ، الذي عاش في مكة والمدينة ستة أشهر ما بين عامي ١٨١٤ ، ١٨١٥ م ، والأستاذ ريتشارد بيرتون الإنجليزي ، الذي عاش في مكة والمدينة عام ١٨٥٣ م ، وهينريش فرن مالتزان ، الذي عاش في مكة ، وهو غير مسلم ، عام ١٨٦٠ م .

وأن هؤلاء الثلاثة كتبوا ملاحظاتهم عن التخلف الذي شاهدوه في تلك المدينتين المقدستين ، ثم قال :

«اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة (في تلك الأزمنة) : القذارة ، انعدام الأمن ، انتشار الخرافات ، وصدق أو لا تصدق : شرب الخمر والدعارة حول الحرم ، بل وحتى داخله أحياناً ؟» [ص ١٥].

مضيفاً إلى ذلك الفوضى في تأدية الصلوات في الحرمين الشريفين حتى بين الحجاج أنفسهم^(١) ؟ ، وهبوط عدد الذين يحجون ويعتصرون ، ثم أشار إلى ما أصاب العالم الإسلامي كله بعد غزو نابليون بونابرت لمصر ، وتفكك عرى الإمبراطورية العثمانية ، فيما بين القرنين التاسع عشر ، والعشرين الميلاديين .

هذه الكوارث جعلت السياسيين الغربيين ، والمستشرقين أدوات الغزو الفكري والعقلي والديني لحساب الاحتلال الأوروبي ، جعلت تلك الكوارث هؤلاء جميعاً ينظرون إلى الإسلام باعتباره حضارة آخذة في الاندثار ، وتوقعوا اختفاء الإسلام من الوجود تماماً؟! .

وأما كل قيم الإسلام تذبل إلا شيئاً واحداً ، هو عقيدة التوحيد حيث كان المسلمون شديدي الحرص على بقائها شامخة في قلوبهم .

• ملامح التطور الجديد •

ثم عاد المؤلف (د. هوفمان) يرصد ملامح التطور الجديد ، الذي خيب آمال ساسة أوروبا ومستشرقيها .

بادئاً بالإصلاح العمراني ، الذي قامت به المملكة العربية السعودية في إطار الحرمين الشريفين في عهد خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز ، ويشير إلى أن التوسع في مساحات الحرمين تم بجمال واقتدار ثم توفير الأمن والراحة للحجاج ، وندرة السرقات ، ومنع المواد المحرمة كالخمر ، والنساء لا يدخلن البلاد منفردات بل لا بد من وجود محرم لكل امرأة .

ثم الزيادة الهائلة في عدد الحجاج ، وعمارة الحرمين بالصلاة على مدار الساعة ، أمام أنظار العالم كله (يشير إلى إذاعة الصلاة عبر الأقمار الصناعية صوتاً وصورة وحركة) .

(١) في تلك الأزمنة كانت الصلاة تقام في الحرم أربع جماعات في الوقت الواحد حسب التصنيف المذهبي الفقهي ، فللحنفية إمام ، وللمالكية إمام ، وللشافعية إمام ، وللحنابلة إمام . ثم تبدل الحال الآن ، وأصبح المسلمون في مواسم الحج وغيرها يصلون خلف إمام واحد ، وبأذان واحد .

ويشير المؤلف أن هذه النهضة ، مع نظائر لها سيأتي ذكرها ، غيرت نظرة الغرب إلى الإسلام ، الذي توقعوا زواله من قبل في ظل انحطاط المسلمين وتخلفهم ، وأن هذه النظرة الجديدة للإسلام بدأت من الربع الأول من القرن العشرين ، فأقبل كثير من المفكرين الأكاديميين في الغرب يدرسون الإسلام بكل تقدير واحترام ، ولم يسع بعضهم إلا اعتناق الإسلام ، ومنهم من هو يكاد يسلم ، كان المستشرقون من قبل ينظرون إلى الإسلام نظرة تقزز واشمئزاز ، وسبب هذه النظرة هو تخلف المسلمين ، فلما بدأوا النهوض من كبوتهم بدأت نظرة الغرب إلى الإسلام تتحسن ، حتى بلغت درجة الإقناع التام ، ومن لم يسلم منهم بدأ يتعاطف مع الإسلام .

ولا يغفل المؤلف دور الصحوة الإسلامية المعاصرة ، وبوادرها في غضون هذا القرن العشرين .

فتراه يرصد حركات المصلحين من العرب وغيرهم ، ويطلق على هذه الصحوة مصطلحاً آخر « حركات إحياء الإسلام » [ص ١٦] ، ويصدر هذه الحركات بحركة الإخوان المسلمين ، التي أسسها حسن البنا ، ودعاتها من بعده ، مثل : سيد قطب ، محمد الغزالي ، أبي الأعلى المودودي .

والحركة البوهابية ، والحركة السنوسية ، وهما الدعوتان اللتان قام بهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، وكان محورها محاربة البدع ، والخرافات وتنقية الإسلام مما لحق به في العقيدة والسلوك .

ثم الشيخ محمد بن علي السنوسي في القرن الثامن عشر الميلادي في شمال غرب إفريقية (الجزائر) وهي قرية الشبة في مضمونها بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وكان لهاتين الدعوتين آثار طيبة في بث الروح الإسلامي في عدد من بلاد المسلمين .

كما أشار إلى حركة الشيخ محمد عبده ، وأشاد بعمق بجهود الملك فهد بن عبدالعزيز (خادم الحرمين الشريفين) ، في طبع المصحف الشريف بكميات هائلة ، وتوزيعه على مستوى العالم الإسلامي .

ويرتب المؤلف على ظهور هذه النهضة أمرين :

الأول : ما سبقت الإشارة إليه من تغيير نظرة الغرب إلى الإسلام كقوة لا تقبل الزوال .

والثاني : يعبر عنه المؤلف بقوله : «والخلاصة أن ذلك التطوير نظر إليه كتهديد أصولي مما جعل الإسلام يحتل القمة فيما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن الحالي » [ص ١٧] .

ثم يستخلص المؤلف بعد هذا العرض القصير للملامح النهضة الإسلامية المعاصرة ما يأتي :

* لا يتوقع اليوم أحد أن يختفي الإسلام، ولكن أن يمتد بل وينفجر .

* أن جنرالات «الناتو» - وكان المؤلف يرأس جهاز استخبارات الناتو كما تقدم - بدأوا يضعون في حساباتهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، بل بين الشمال الصليبي والجنوب الإسلامي؛ فالإسلام في نظر الغرب أصبح العدو المرتقب [ص ١٧] .

وكعامل مساعد على نمو النهضة الإسلامية المعاصرة يشير المؤلف إلى الزيادة المطردة للمسلمين في الغرب ، وبخاصة في ألمانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا .

كما يشير إلى انتشار المساجد في تلك البلاد ، وفي موسكو ، وبإنشاء الجامعة الإسلامية (افيروس) التي أقامها المسلمون الأسبانيون في عاصمة الخلافة الإسلامية القديمة (قرطبة) في عام ١٩٩٤م بعد خمسمائة عام من رحيل الإسلام عنها ، ويتوقع المؤلف أن تعود المساجد في أسبانيا

وترفع الأذان خمس مرات في اليوم .

كما يتوقع - مثلما توقع ليوبلد فانس الذي أسلم وتسمى «محمد أسد» في كتابه العظيم « الإسلام على مفترق الطرق » - أن الدعوة الإسلامية ستصبح هي الدعوة الناجحة في الغرب الصليبي ، وفي البلاد التي كانت تسيطر عليها الشيوعية قبل عام ١٩٩٠ م .

وأن السبب في نجاح الدعوة الإسلامية ، المتوقع في تلك البلاد يعتمد على أمرين :

- الخواء الروحي الذي بدأت أوروبا تشعر به الآن .
- إفلاس النظام الشيوعي قبل مرور مائة عام على ظهوره ، والتهويل من شأنه .

● تعقيب :

نحن مع الدكتور مراد هوفمان في قليل تفاؤله نحو مستقبل الإسلام ، ولكن المناخ العام الذي أشار إليه ، الذي يمهد الطريق لرواج الإسلام في الغرب - لا يكفي لنجاح الدعوة الإسلامية في تلك البيئات .

فلا سقوط الأيديولوجية الشيوعية كاف ، ولا شعور الغرب بالخواء الروحي ، وزهده غير المعلن في موروثاته الدينية كاف لانتشار الإسلام هناك . ولا كثرة المساجد ، ولا تزايد الأعداد الإسلامية ، كل هذه العوامل - وحدها - لا تكفي في انطلاق الدعوة الإسلامية في الغرب ، والنهضة الإسلامية المعاصرة ، التي حملت المؤلف على قليل تفاؤله ما يزال ينقصها الكثير من الإصلاحات ، وما يزال أمامها الكثير من العقبات .

فالعمل الإسلامي الآن مفكك إذا وجد ، ومجزأ ، بل إن بعضه يقاوم بعضه .

الصحة الإسلامية صحة شعوب وأفراد ، ولم تصل بعد إلى

مستوى النظم الحاكمة ، فما أكثر الشعوب المتحمسة لعودة الإسلام ، ولكن حماسها تجد معارضة عنيفة في بعض الدول الإسلامية ، تصل إلى حد التجريم والتأثير والعقاب .

وساسة الغرب الصليبي ، وبقايا الشيوعية ، والصهيونية العالمية تقف حجر عثرة أمام الزحف الإسلامي .

وبعض الشعوب الإسلامية ، والأقليات الإسلامية معرضة للاضطهاد في كثير من دول العالم .

والمشروع الغربي (العولمة) تسعى الدول الكبرى إلى فرضه على العالم الإسلامي ، وأمريكا أعدت بديلاً عن الأديان ، والمقصود الإسلام ، ذلك البديل هو « الكهنوت العالمي » ، الذي سيعلن عنه في حينه عندما تواتيهم فرصة إعلانه وفرضه .

إن هذه العراقيل تجعل الإسراف في التفاؤل نوعاً من خداع النفس . وقد لمس المؤلف ما يمر به العالم الإسلامي - الآن - من ضعف مزير ناشئ عن غياب الوحدة الإسلامية :

ضعف سياسي ، وضعف عسكري ، وضعف في مجال العلوم الحديثة ، التي هي سبب تفوق الغرب المادي على العالم الإسلامي ، هذا الضعف بأنواعه ليس ذاتياً فنياً ، ولكنه أمر فرضناه على أنفسنا بتفككنا وتنازعنا وتبعيتنا المهينة للقوى الكبرى وخلو واقعنا من وضع مشروع يعيد للأمة هيبتها ، ويحفظ لها هويتها الإسلامية الشاردة .

كم من الأحداث العالمية تقوم ونحن غائبون ؟ وتنتهي ونحن غائبون . في يد الأمة ورقات رابحة لم تستثمرها ، وسلاح ماض لم تستخدمه ، ولكي تنجح دعوة الإسلام في الغرب لا بد من إزالة كل هذه العوائق ، مع وضع برنامج إسلامي عام لنجاح تلك الدعوة ، فالمناخ السلبي لا يفيد .

والمسلمون ليسوا مفتقرين إلى حق يدعون إليه ، وكوادر وأدوات تحمل تلك الدعوة ، وإنما هم في أشد الحاجة إلى محاسبة أنفسهم ، ووضع أقدامهم على الطريق الموصل إلى تلك الغايات العظمى .